تفسير التاريخ البشري
بين
المادية والدعوة الإسلامية

بقلم

دكتور

مصطفى أحمد أبو سمك

أستاذ مساعد بقسم الدعوة

بكلية أصول الدين بالقاهرة

جامعة الأزهر

تفسير التاريخ البشرى بين المادية والدعوة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعـــد :

فلا يخفى على أحد أننا نعيش فى عصر من عصور ازدهار المعارف والعلوم ، وتقدم الثقافات والفنون — سواء فى المجال العملى التطبيقى أم فى المجال النظرى الفكرى .

ولذلك لم يكن عجباً أن تتكاثر البحوث العلمية فى المجالين المذكورين ، وأن تتعدد مناهج الدراسة فيهما ، وتتشعب فروعهما إلى اتجاهات شتى .. كان أبرزها — فى ميدان العلوم النظرية والمعروفة باسم العلوم الإنسانية — علم الاجتماع ، الذى عنى بدراسة كافة الظواهر البيئية التى تؤثر فى كيان الفرد وبنية المجتمع ، وكذا العوامل التى تشكل تاريخ البشرية على مدى العصور ومختلف الأمصار .

أقول : لقد ظهر — فى المجال المذكور — بحـــوث كثيرة تنتمى لاتجاهات عديدة ، وكان حقاً علينا أن نقف وقفة واعية ، لمراجعة نتائج هذه البحوث ، حتى نبين للناس عقم ما أنتجته البشرية ، وسقم ما أنبتته فى دراسة التاريخ الإنسانى ، نتيجة انحراف القائمين على هذه الدراسة ، عن الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

وبحثى الذى أقدمه هنا تحت عنوان [تفسير التاريخ البشرى بين المادية والدعوة الإسلامية] هو بمثابة تجلية لموقف الإسلام تجاه القضية الاجتماعية

المعروضة ، وتعرية — فى الوقت ذاته — لتصورات المذاهب المادية حول القضية نفسها ، وذلك من خلال عرضها من مظانها ومصادرها ، والتعقيب على عرضها تبياناً لوهنها ودحضا لفريتها .

هذا ولأشرع بتوفيق الله تعالى ، فى تناول ماذكرت من جزئيات ، مستفتحاً بالذى هو خير .

تفسير التاريخ البشرى فى دعوة الإسلام :

يطيب لى بادىء ذى بدء ، أن أنوه بموقف الدعوة الإسلامية تجاه مدلول التاريخ ، وهو موقف يتلخص فى تركيزها على تحليل أحداث التاريخ وتفسير وقائعه[1] .. ابتغاء الهداية والإرشاد . أولا ، وابتغاء الوقوف — ثانياً — على أسس الدعوة وأهدافها ، وأساليبها ووسائلها ، ومدى استجابة المدعوين لها ، وصور الاستجابة ونتائجها المتمثلة فى عواقب الأفراد ومصائر الأمم .. إنجاءاً وإسعاداً لمن آمن بدعوة الرسل وعمل صالحاً .. وإهلاكا وإشقاءاً لمن كفر بالله وكذب بآياته ، ولعل هذا بعض ما يشير إليه قوله عز وجل «وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون»[2] .

وإذا كانت دعوة الرسل فى القرآن الكريم تبين كيفية انتظام

(١) يقول الأستاذ سيد قطب عن مدلول كلمة التـــاريخ فى دعوة الإسلام « التاريخ تفسير لوقائع الحياة » . العدالة الاجتماعية فى الإسلام ص ٢٨٢

(٢) سورة الأنعام : ٤٨ ، ٤٩

العواقب والمصائر المشار إليها للأمم والأقوام السالفة، فإن قصة آدم — عليه السلام — من القرآن الكريم، تبين انتظام العواقب ذاتها للأفراد ... مثنى وآحاد ... وذلك حيث باء إبليس اللعين بالخسران المبين لاستكباره عن اتباع الأمر الإلهى، وحيث فاز آدم وزوجه عليهما السلام بالرضوان الأكبر لتوبتهما إلى الله سبحانه، واستغفارهما مما وقعا فيه غواية ونسياناً[1].

وأعود لأعرض موقف دعوة الإسلام من تفسيرها للتاريخ البشرى، فأقول: لقد أحاط الإسلام — فى كتابه الكريم وقرآنه المجيد الذى تعهد الله بحفظه أبد الدهر — بتاريخ البشرية إحاطة تفرد بها وتميز، ذلك لأن سوره الكريمة عرضت لتاريخ نشأة الإنسان الأول ... آدم عليه السلام — وتناولت مظهر تكريمه فى الملأ الأعلى، وبدأ ارتباطه بالأسرة ارتباطاً يقترن بنشأته، ويوحى بآثاره التى ينطوى عليها تعبير السكن المذكور فى قوله تعالى: «وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة»[2].

ثم بعد الانتهاء من عرض تاريخ النشأة الأولى للإنسانية، أخذت سور القرآن الكريم تعرض تاريخ النوع الإنسانى منذ العصور البشرية الموغلة فى القدم الزمنى غير المطلق، وبدأت — فى هذا الشأن — بمجتمع أول الرسل[3] — نوح عليه السلام — ثم أخذت السور الكريمة تصعد

(١) راجع الآيات الكريمة من سورة البقرة، من الآية رقم ٣٤ إلى رقم ٣٧

(٢) سورة البقرة: ٣٥

(٣) والدليل على أولية نوح عليه السلام فى قائمة الرسل الكرام، ما رواه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث الشفاعة، الوارد فيه أن آدم =

٤

فى سلم التاريخ، واقفة لدى بعض مراحله — تفسيراً لأحداثها ووقائعها، وتركيزاً على ماحوته من عبر وعظات ودروس وهدايات.

أقول: لقد عرضت سور القرآن الكريم تاريخ النوع الإنسانى من أول المجتمعات ظهوراً، حتى آخرها وجوداً — أى من مجتمع نوح — عليه السلام — حتى مجتمع النبى الخاتم سيدنا محمد — ﷺ — صحيح أن أن سور القرآن الكريم لم تقف بنا على سائر الأمم التى كانت بين البدء والخاتمة، لكنها وقفت على عدد منها يكفى لبيان تاريخ البشرية بأسرها، وهو التاريخ الذى ربطت أجزاءه، ووحدت مراحله، وحددت نهاية كل مرحلة فيه .. عقيدة التوحيد التى جاء بها جميع الرسل، ودعوا إليها على مدار التاريخ.

لقد أثبتت سور القرآن وأكدت — من خلال عرضها لتاريخ النوع الإنسانى — أن عقيدة التوحيد هى العامل الوحيد الذى بسببه نعمت الأمم باستمرار البقاء إلى ما شاء الله تعالى، وهذا أمر يجعلنا نقرر، أنه

= عليه السلام — سيقول لمن يستشفعون به يوم القيامة: «لست هناكم» يذكر خطيئته التى أصاب، فيستحيى ربه منها، ولكن ائتوا نوحاً أول رسول بعثه الله». ويقول الإمام النووى فى شرحه لهذه الفقرة من الحديث النبوى الشريف: قال الإمام أبو عبد الله المازرى قد ذكر المؤرخون أن إدريس جد نوح عليهما السلام، فإن قام دليل أن إدريس أرسل أيضاً، لم يصح قول النسابين أنه قبل نوح، لإخبار النبى — ﷺ — عن آدم أن نوحاً أول رسول بعث، وإن لم يقم دليل جاز ما قالوه، وصح أن يحمل أن إدريس كان نبياً غير مرسل.

صحيح الإمام مسلم بشرح النووى حـ ٣ ص ٥٥، وراجع قصص الأنبياء للحافظ ابن كثير ص ٦٠

لولا وجود هذه العقيدة ، واعتناق بعض الطوائف لها فى كل أمة ، لهلك النوع الإنسانى ، واستؤصلت مجتمعاته... حقيقة أو حكما... حقيقة بإهلاك الأفراد ، وحكما بسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ما بقوا معرضين عن عقيدة توحيد الله فى الألوهية والربوبيه .

ويطالعنا القرآن الكريم على وجهى الاستئصال ، فيضرب المثل للهلاك الحكمى بمجتمع بنى إسرائيل وذلك فى قول الله سبحانه : « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع الحساب وإنه لغفور رحيم »[1] ... ثم يضرب القرآن الكريم المثل للهلاك الحقيقى بما حاق بالمستكبرين المكذبين من قوم نوح وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، ثم فرعون وجنوده فى قصة موسى عليه وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة وأتم التسليم... فقد حاق بهؤلاء المكذبين بدعوة الرسل ، الهلاك الحقيقى الذى تعددت صوره واتحدت نتيجته ... أما مكذبوا دعوة نوح فأهلكوا غرقا ، وفى ذلك يقول الله تعالى عن نوح وقومه « ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين »[2] ... وكذلك كان الهلاك غرقا لفرعون وجنوده الذين قال الله فى نهايتهم « فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين »[3] ... وأما مكذبوا دعوة هود ، فأهلكوا بريح صرصر عاتية قطعت دابرهم ، وأتت على آخرهم[4] .

---

(١) سورة الأعراف : ١٦٧

(٢) سورة الأنبياء : ٧٧

(٣) سورة الزخرف : ٥٥

(٤) تدبر الآيات الكريمة من سورة الذاريات . رقم ٤١ ، ٤٢ وسورة الحاقة رقم ٦ ، ٧ ، ٨

وأما مكذبوا دعوة صالح فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون [1] ، وأما مكذبوا دعوة لوط فقد أمطروا — هلاكا وإبادة — بحجارة من سجيل منضود ، وجعل عالى أرضهم سافلها [2] ، وأما مكذبوا دعوة شعيب فقد أخذتهم الصيحة المهلكة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، وكأن لم يكن لهم وجود فى الحياة الدنيا من قبل [3] .

وحرى بنا فى هذا المقام أن نقول : إن الأمثلة الإجتماعية التاريخية التى أشرت إليها هنا فى ضوء ما جاء به القرآن الكريم ، تبين فى وضوح كيف ترتبط عاقبة الأمم بعقيدة التوحيد ، وكيف كانت هذه العقيدة العامل الوحيد الذى جعل من تاريخ البشرية سلسلة متصلة الحلقات ، متفاعلة الجزئيات ، ممتدة مع الزمن والبيئة إمتداد الكائن الحى فى الزمان والمكان ، [4] .

ثم إن سور القرآن لم تقف بتاريخ البشرية عند مجتمع النبوة الخاتمة ، وإنما امتدت بهذا التاريخ وتجاوزت مراحله فى دار التكليف إلى مرحلته الخاتمة فى دار الجزاء ، وليس خافيا على أحد ، أن سور القرآن قد ربطت — فى أكثر من موضع ، بل فى مواضع تكاد تعز على الحصر — بين حياة الأمم فى الدنيا ، وبين ما ينتظر جميعها فى الآخرة الممتدة فى عالم الخلود ، حتى تصبح دورة التاريخ البشرى تامة كاملة .

وحين تصل سور القرآن الحياة الآخرة بالأولى ، فما ذلك إلا لتبين أن

---

(١) تدبر الآيات الكريمة من سورة الذاريات : رقم ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ وسورة فصلت آية رقم ١٧

(٢) تدبر آيتى رقم ٨٢ ، ٨٣ من سورة هود .

(٣) تدبر الآية الكريمة رقم ٩٤ من سورة هود .

(٤) العدالة الإجتماعية ص ٢٨٣

سائر الأمم ستكون حياتها فى الآخرة إمتداداً لحياتها فى الدنيا . . أى أن كيفية الحياة فى الآخرة ستدور كذلك على موقف الأمم من عقيدة التوحيد . . إتباعا أو إعراضا . . فمن آمن بالتوحيد فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون، ومن أعرض عن هذه العقيدة فأولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، قال تعالى فى بيان حياة الأمم يوم القيامة « ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون » (١) .

وأخلص مما قدمت لأقرر : إنه لجدير بسور القرآن الكريم — وقد أحاطت بتاريخ البشرية على نحو ما عرضت — أن تتبوأ الريادة فى مجال التفسير الإسلامى للتاريخ . . ذلك التفسير الذى يحيط بكيان الإنسان روحاً وحساً ، وبعلاقاته ديناً ودنيا ، والذى يقوم على تعليل أحداث الأمم ووقائعها بشىء واحد ، هو عقيدة التوحيد ، صاحبة الدور المؤثر فى كافة مراحل التاريخ البشرى ، بل فى ربط جميع مراحله برباط جعل منها سلسلة متصلة الحلقات ، من العصور الأولى للمجتمعات ، حتى عصورها المتأخرة ، بل فى كل مراحل عمرها . . سواء فى الحياة الأولى أو فى الآخرة .

هذا ولا يفوتنى أن أبين الأسباب التى تجعل من التفسير الإسلامى للتاريخ البشرى تفسيرا لا يتطرق إلى صحته شك، ولا ينال من صدق تصويره مسرف مرتاب ، وبهذا يبقى تفسيراً وحيداً . يطمئن إليه من يبغى الحقيقة الخالصة ، ومن يسلك أقوم السبل للوقوف على المنهج القويم فى دراسة التاريخ البشرى وتفسيره .

---

(١) سورة الروم من آية رقم ١٤ إلى رقم ١٦

على أنه لا يغيب عن الأذهان — قبل أن أعرض الأسباب المذكورة — أن هذه الأسباب هى فى جملتها أمور تزيد التفسير الإسلامى للتاريخ — بيانا وإيضاحا ، وتبرهن — فى الوقت نفسه — على صدقه وأصالته .

وأشرع بذكر الأسباب المشار إليها على النحو الآتى :

أولا : يكتسب التفسير الإسلامى للتاريخ البشرى صفة الصدق والأصالة ، لأنه مستمد من القرآن الكريم ، وهو إستمداد له معطيات كثيرة ، أوردها وأبينها فيما يلى :

(ا) إن القرآن هو المعجزة الوحيدة الباقية فى عالم الرسالات الآلهية ، وهو المعجزة التى لا تحتاج من المحدثين أى جهد فى إثباتها والاستدلال على دوامها ، بعد ما بذله الأقدمون فى هذا الشأن من جهة ، وبعد بقاء القرآن نفسه القرون العديدة ، متأبيا على التحريف أو الضياع من جهة أخرى ، وذلك على الرغم مما حاكه ويحيكه الأعداء نحوه من مكر وحيل لو كانت لغيره لجعلته أثراً بعد عين ، ولأصبح فى خبر كان منذ زمن بعيد . يقول د / محمد دراز « سل التاريخ : كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام ، وتسلط الفجار على المسلمين . فأثخنوا فيهم القتل ، وأكرهوا أممهم على الكفر ، وأحرقوا الكتب ، وهدموا المساجد ، وصنعوا ما كان يكفى القليل منه لضياع هذا القرآن كلا أو بعضا ، كما فعل بالكتب قبله ، لولا أن يد العناية تحرسه، فبقى فى وسط هذه المعامع رافعا راياته وأعلامه ، حافظا آياته وأحكامه : بل اسأل صحف الأخبار اليومية : كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق فى كل عام لمحو هذا القرآن . . ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم

يغلبون » ذلك بأن الذى يمسكه أن يزول هو الذى يمسك السماوات والأرض أن تزولا » [١] .

أقول : وفى هذا بيان لجانب من جوانب اكتساب التفسير الإسلامى للتاريخ صفة الصدق باستمداده من القرآن الكريم .

(ب) كذلك يكتسب التفسير الإسلامى للتاريخ صفة الصدق ، لأنه مستمد من القرآن الذى عرض فى صفاء ويقين قصة الإنسانية الأولى ، والتى يعجز العلم عن اقتحام مفازتها حتى الآن.. يقول الأستاذ على الخطيب « إن الإنسانية — إلى هذا اليوم — لا تزال تصارع فى سبيل اكتشاف تاريخها بالبحث والتنقيب والحفر وغير ذلك ، فما بالنا بأحداث صحبت آدم أول خلق الله من الإنسان وصدق الله العظيم إذ يقول «فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » [٢] .

(ج) كذلك يكتسب التفسير الإسلامى للتاريخ صفة الصدق ، لأنه مستمد من القرآن الكريم وهو الكتاب الآلهى الوحيد الذى صان تاريخ الأمم والأقوام السالفة ، كما صان معها أيضا دعوة الرسل الكرام ، . يبين الأستاذ العقاد أفق الصون المذكور فيقول « المسألة التى لا يصح الخلاف عليها عند المقابلة بين المصادر القديمة ، هى نقص المصادر اليهودية ، حتى فى أخبار البلاد المجاورة لمملكة إسرائيل ، وأما المصادر الإسلامية فهى أو فى بأخبار هذه البلاد من مصادر اليهود ، ويكفى لتقرير ذلك أن كتب اليهود لم تذكر قط أخبار عاد وثمود ، وانفرد القرآن الكريم بذكرها » [٣] !

(١) النبأ العظيم ص ٣٩ والآية المذكورة من سورة الأنفال : ٣٦
(٢) عقائد بنى إسرائيل فى القرآن الكريم ص ٧٤ والآية من سورة الأعراف : ٧
(٣) إبراهيم أبو الأنبياء للعقاد ص ١١٩

ويسبق الإمام ابن تيمية العقاد فى تقريره صون القرآن لتاريخ الأمم السالفة ، بل يوسع الإمام دائرة المقارنة السابقة فيقول « وفى القرآن من قصص الأنبياء عليهم السلام مالا يوجد فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل قصة هود وصالح وشعيب وغيرهم » [١] .

حقاً . لقد تفرد القرآن الكريم بصون تاريخ الأمم من التبديد والضياع ، كما صان التاريخ نفسه من الغلو والإسراف ، ويكفى لإثبات ذلك ، أن أذكر بموقف القرآن من بنى اسرائيل — أشد الناس عداوة للنبى الخاتم والعرب خاصة ، وللبشرية عامة — فعلى الرغم مما اقترفه اليهود من المكائد والمؤامرات ضد دعوة الإسلام .. يأتى القرآن وروح الإنصاف تتجلى فى آياته الكريمة ، فيمدح ويثنى على الصالحين منهم ، والهادين إلى طريق الحق وإلى الطريق المستقيم .. يقول الشيخ العدوى « والعبرة فى قوله سبحانه — فى شأن بنى اسرائيل — « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » .. التأسى بالقرآن فى بيان الحقائق ، وعدله فى الحكم ، فالرجل الذى اتخذ القرآن إماماً له ، ونوراً يهتدى به ، يتأسى به فى حكمه على الأفراد والشعوب ، فلا يسرف فى المدح أو الذم ، ولا يتغالى فى بيان التاريخ » [٢] .

(د) كذلك يكتسب التفسير الإسلامى للتاريخ البشرى صفة الصدق ، لأنه مستمد من القرآن الذى لفت الأنظار ، وحث العقول على دراسة التاريخ... فالقرآن الكريم كما أمر بالنظر فى الآفاق وفى الأنفس ليعمق الإيمان ، أمر أيضاً بالنظر فى عواقب الأمم الماضية نظراً يقوم على التحليل وربط الوقائع بعضها ببعض ، الأمر الذى لا يتحقق إلا بدراسة

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية جـ ١ ص ٢٠٠
(٢) دعوة الرسل إلى الله تعالى للشيخ محمد العدوى ص ٢٠٩

التاريخ البشرى على المنهج الإسلامى ، ويكفى أن أذكر فى هذا المقام ، بأمر الله تعالى لخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ ، ولكل مؤمن بدعوته ، أن ينظر بعين التدبر والإعتبار فى عاقبة من سبقنا من الأمم ، وذلك قوله سبحانه : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين »(١) .

وفى ختام حديثى عن القرآن الذى يستمد منه التفسير الإسلامى للتاريخ صدقه ، أقول : قد يقر بعض المعاندين للإسلام ، بأن القرآن كتاب حوى بين دفتيه قضايا عقدية ، وأحكاما تشريعية ، وقيما أخلاقية ، لكن هذا البعض يأبى فى الوقت نفسه ، أن ينازله أحد بالقرآن فى مجال دراسة التاريخ البشرى .

وإلى هذا البعض أقول : إن أثر القرآن فى تفسير تاريخ الأمم لا يقل شأنا عن أثره فى ميدان العقائد والشرائع والأخلاق ، ولعل وجود الطائفة المسلمة التى عكفت على دراسة الشعوب وتفسير تاريخها فى ضوء القرآن وهدايته ، ترد إلى هؤلاء المعاندين سهمهم فى نحورهم .

يقول الإمام السيوطى عن الطائفة المسلمة التى اشتغلت بالتاريخ « ولمحت طائفة ما فى القرآن من قصص القرون السالفة والأمم الخالية . ونقلوا أخبارهم ، ودونوا آثارهم ووقائعهم ، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء وسموا ذلك بالتاريخ »(٢) .

ثانياً : يتسم تفسير الإسلام لتاريخ البشر بالأصالة والصدق ، لنظرته الواقعية للإنسان ... وهو اللبنة الأساسية فى بناء أى أمة .. وليس هناك

---

(١) سورة الروم : ٤٢

(٢) الإتقان فى علوم القرآن جـ ٤ ص ٣٢

أدل على واقعية النظرة فى الإسلام للإنسان ، من عنايته بالجانب المادى لحياة الانسان ، كعنايته تماماً بالجانب الروحى لها .

يقول الأستاذ سيد قطب : « إن الاسلام يعرف الانسان إنساناً ، فيعرف لضروراته عمقها فى كيانه وأصالتها فى طبيعته ، ويعرف بجانبه لأشواقه عمقها فى كيانه وأصالتها فى طبيعته ، ومن ثم يحرص على مراعاة أشواقه وضروراته ، كل منها فى مكانه ، وكل منها بعمقه وأصالته ، وكذلك تجىء تقديراته للإنسانية أسلم ، وتفسيراته للحياة أصدق »(١) .

ثالثاً : يتسم تفسير الاسلام لتاريخ البشر بالأصالة والصدق ، لإلمام الاسلام وإحاطته بالعوالم المتعددة التى يتعامل معها الانسان ، ويتشكل منها تاريخه .. فالانسان « يمضى فى تاريخه مع عوامل متشابكة .. يتعامل مع الحقيقة الالهية : مشيئتها وقدرها .. ويتعامل مع الملأ الأعلى وملائكته ، ويتعامل مع إبليس وقبيله ، ويتعامل مع هذا الكون المشهود ونواميسه ، ويتعامل مع الأحياء فى هذه الأرض ، ويتعامل مع بعضه البعض .. وفى هذا الخضم من الروابط والعلاقات يجرى تاريخه ويفسر .. والذين يفسرون التاريخ الانسانى تفسيراً روحياً أو نفسياً أو اقتصادياً أو سياسياً ، والذين يفسرونه تفسيراً عقلياً . كل أولئك ينظرون نظرة ساذجة إلى جانب واحد من جوانب العوالم المتشابكة التى يتعامل معها الانسان ، ويتألف من تعامله معها تاريخه . والتفسير الاسلامى للتاريخ هو وحده الذى يلم بهذا الخضم الواسع ويحيط به ، وينظر إلى التاريخ الانسانى من خلاله »(٢) .

رابعاً : يتسم تفسير الاسلام لتاريخ البشر بالأصالة والصدق ، لنظرة

---

(١) السلام العالمى والاسلام ص ١٠٧

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٨ ص ١٣٠٣ بتصرف واختصار .

الاسلام العميقة إلى مفهوم المجتمع وحقيقة أمره ، وهى حقيقة تتلخص فى أن المجتمع ليس فكرة مثالية أو رقعة أرضية تضم مجموعة أفراد ، تنشأ بينهم مختلف العلاقات، ولكن المجتمع مفهوم يقوم على إيمان عقدى يدين الناس به ، وتشريع عملى يخضعون لأحكامه ، ونظام خلقى يتعايشون فى ظلاله .

ولعل المقام يكون مناسباً لأن أقف وقفة تحليلية حول الأساس الأول فى كيان المجتمع .. ألا وهو أساس العقيدة ، وذلك حتى يتبين لنا كيف ينأى الاسلام فى تفسيره لتاريخ البشر عن جانبى الغلو .. ارتقاءاً أو انحداراً ورعاية للمقام ، أوجز تفسير الاسلام لتاريخ العقيدة فى عبارة مؤداها : أن العقيدة الدينية فطرة ملازمة للإنسان منذ نشأته ، وفى جميع مراحل عمره من دنياه لآخرته .. بل يقرر الاسلام : أن العقيدة الدينية أمر يمتد فى أزليته إلى ماقبل نشأة الانسان ، متمثلا ذلك فى الملائكة وفى بقية ما خلق الله من شيء فى السماوات والأرض .

والاسلام بتقريره أزلية العقيدة الدينية فى النشأة، وأبديتها فى المصير، يخالف تمام المخالفة ماظهر من تفسيرات وضعية .. تارة تنفى عن العقيدة أزلية النشأة ، كأنها أمر يتطور تطوراً تصاعدياً من الالحاد إلى التوحيد ، وذلك على نحو ماذهب إليه أهل السفسطة من اليونان قديماً ، وكتاب القرن الثامن عشر حديثاً[1] .. وتارة أخرى تنفى التفسيرات الوضعية عن العقيدة أبدية المصير ، كأنها أمر يتطور تطوراً تنازليا من التوحيد إلى الالحاد ،

(١) راجع الأقوال المنسوبة إلى هؤلاء فى كتاب الدين د. دراز ص ٨١ ، ٨٥

على نحو ماذهب إليه (أوجست كونت)[1] و(كارل ماركس)[2] فى القرن التاسع عشر .

والاسلام حين يخالف التفسيرين الوضعيين المذكورين ، فما ذلك إلا لكونهما ادعاءين لا دليل على صحتهما ، بل قامت الأدلة على زيفهما وبطلانهما ، وأستأنس فى إبطال التفسير التصاعدى للعقيدة الدينية .

يقول الأستاذ المودودى : « إن الذين يكتبون عن تاريخ الأديان .. كثيراً ما يميلون إلى نظرية الارتقاء التاريخى ، ويقولون إن الانسان قد بدأ سيره بأدنى ألوان الشرك ، وبقدر ما تطور شعوره ونضج وعيه ، بقدر ما أرتفع مقياسه للآلهة وانخفض عددها ، حتى تطور به الأمر إلى اعتقاده بالتوحيد ، إلا إن التاريخ بنفسه يفند هذه النظرية إذ كان ابراهيم عليه السلام وهو قبل المسيح بـ ٢٥٠٠ سنة ، على عقيدة التوحيد الخالص وأكبر دعاتها ، ولا يزال يوجد اليوم بعد ٢٠٠٠ سنة من المسيح عشرات الملايين من بنى آدم على عقيدة الشرك ، فهل هذا دليل على الارتقاء التاريخى ؟ الحقيقة أنه مازال يوجد فى كل زمان — كما يوجد اليوم — كل نوع من أنواع العقيدة من أدنى ما يكون من الشرك إلى أسمى مايكون من التوحيد فإذن ليس التفاوت فى التسلسل التاريخى . وإنما هو فى مدارج مختلف الناس باعتبار العقل والشعور والفكر »[3] .

ويحق لى أن أضيف قائلا: إذا كانت مقالة المودودى تنفى الارتقاء التاريخى للعقيدة الدينية من الشرك إلى التوحيد ، فهى — من باب أولى — تنفى الارتقاء التاريخى من الالحاد إلى التوحيد.

(١) راجع الأقوال المنسوبة إليه فى كتاب الدين للدكتور دراز ص ٨١ ، ٨٥

(٢) راجع أقوال (ماركس) فى كتاب: تمهيد فى علم الاجتماع للكاتب: توماس بوتومور ص ٣٦٣ (٣) مفاهيم إسلامية للمودودى ص ٢٣

ثم ينبغى أن يعلم أن الرأى الذى يبطل التفسير التصاعدى للتدين ، ليس مقصورا على علماء الإسلام فحسب ، وإنما هو رأى فريق لا يعتنق الإسلام دينا . يقول معجم [لاروس] للقرن العشرين « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية »(١) ويقول [هنرى برجسون] « لقد وجدت جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة »(٢) .

وليس لى من تعقيب على الأقوال المذكورة ، إلا أن أقول فى إيجاز إن هذه الأقوال تهوى بالتفسير التصاعدى للتدين إلى مكان سحيق .

وإذا إنتقلت بعد ذلك إلى التفسير التنازلى للتدين ، لتبيين زيفه هو الآخر ، فلى أن استأنس بهذه الحجة الوجيزة التى تنفى بالمنطق والعقل - مقولة أن الدين وهم مصيره الإختفاء ، أو أنه ظاهرة وجدت فى التاريخ ولن يكتب لها البقاء . يفند الأستاذ وحيد الدين خان المقولة المذكورة فيقول « لو كان الدين شيئاً خيالياً لما حظى بهـذه المكانة فى النفس الإنسانية عبر الدهور »(٣) أى ان العقيدة الدينية حقيقة — فى التاريخ البشرى — واقعة وقائمة ، وأن الدعوة إليها أمر مستمر مابقيت البشرية .

ويشاركه — أيضاً — فى تفنيد التفسير التنازلى للتدين ، باحثون لا يدينون بالإسلام ، ومن هؤلاء [سالمون ريناك] وهو القائل [ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب ، بل لنا أن نكون على يقين من أنه سيبقى شىء منها أبداً](٤) .

(١) نقلا عن كتاب الدين ص ٨٤
(٢) « « « « ص ٨٥
(٣) الدين فى مواجهة العلم ص ١١٦
(٤) نقلا عن كتاب الدين ص ٨٩

ويقول [أرنست رينان] « إن من الممكن أن يضمحل كل شىء ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينمحى التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية(١) » .

أقول : وكيف بذلك بيانا لخواء التفسيرين التطوريين المذكورين وبطلانهما ، الأمر الذى يفسح المجال ، ويجعله رحبا واسعا — مرة أخرى — أمام التفسير الإسلامى لتاريخ البشر ، وذلك حيث يقرر فطرة التدين وبقاءها ، لاعلى أية صورة من صوره ، وإنما على عقيدة التوحيد .

ثم لا يفوتنى أن أشير إلى أن كثيراً من الباحثين فى مختلف فروع العلم والمعرفة ، قد توصلوا عن طريق أبحاثهم إلى ماقرره التفسير الإسلامى للعقيدة الدينية ، وفى ذلك يقول د/ دراز « هذه هى نظرية : فطرية التوحيد وأصالته . التى انتصر لها جمهور من علمـاء الأجناس وعلماء الإنسان ، وعلماء النفس . ومن أشهر مشاهيرهم [لانج] و[شريدر] و[كترفاج] و[شميدت] ... وقد إنتهى هـذا الأخير .. إلى أن فكرة الإله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية(٢) ».

ويجدر بى — فى هذا المقام — أن أنوه بأن نظرية فطرية التدين ، والتى انتصر لها جمهور العلماء المذكورين هنا ، ليست أمراً صادراً من عقلية بشرية أو نزعة أرضية على نحو ما ذهب إليه بعض كتاب التاريخ ، وإنما هى أمر صادر عن الديانات الإلهية .

(١) نقلا عن كتاب الدين ص ٨٩
(٢) كتاب الدين ص ١١٢ ، ١١٣ بتصرف واختصار

. . تلك التى تترى وتتوالى من قديم الزمان ، إلى أن أكمل الله تعالى هذه الديانات بدين خاتم الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ولنا أن نستدل على تعاقب الرسالات وتتابع الرسل فى الأمم السالفة ، على مدار التاريخ الإنسانى ، بقوله سبحانه « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير[1] » وقوله سبحانه « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك[2] » .

وفى ضوء هاتين الآيتين الكريمتين لنا أن نستنتج : أن جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس البشرية الموحدة ، هم لا محالة من الأمم التى لم تخل واحدة منها من نذير ، وهم لا محالة أيضاً من الأمم التى أرسل الله إليها الرسل الكرام الذين لم يقص القرآن علينا قصص جميعهم ، والذين شاءت إرادة الله أن يبعثهم إلى أقوامهم كلما عرض للخط البيانى للعقيدة ما يعترض طريقه ، أو ما يحمله على الإنحراف يميناً أو شمالا حين تنطمس الفطرة ، ويطبع على العقل . الأمر الذى لا يدع مجالا للقول ببدعة التفسير المادى للتاريخ البشرى ، ومن ثم فإن التفسير الإسلامى له يحظى بالقبول ، بل يصبح جديراً بأن يتبوأ عرش الصدق ، ويحتل مركز الصدارة فى دنيا العلم والمعرفة بصفة عامة ، وبين المشارب الأخرى فى تفسير التاريخ بصفة خاصة . . وهى مشارب آن لى أن أقوم بتناولها وعرضها على نحو ما يلى .

---

(١) سورة فاطر : ٢٤

(٢) سورة غافر : ٧٨

مدخل إلى التفسير المادى للتاريخ البشرى :

حين يبتعد الباحث عن التفسير الإسلامى للتاريخ ، يجد نفسه أمام تيارات شتى ومذاهب وضعية متعددة ، تتنازع تاريخ البشر وهى تقدم له تفسيراً يحيط بجوانبه ويربط بين مراحله ، ويعلل لأحداثه ووقائعه ، ويعمل على إخراجه فى صورة معينة وقالب محدد .. فهذا تفسير روحى ، وذاك تفسير مادى . . هذا تفسير سياسى وذاك تفسير نفسى إلى آخر ما يزخر به علم الاجتماع من آراء وتصورات ، لا ينبغى لنا أن تأخذنا الدهشة أمام كثرتها وتعددها ، لأن هذه الحال سنة دائمة يهدينا القرآن إليها حين يقرر : أن من خرج عن منهج الإسلام بمزق لا محالة بين مناهج وضعية شتى حذرنا الله من أتباعها ، وأرشدنا إلى الوقاية منها بالسير على الصراط المستقيم ممثلا فى دعوة الإسلام . قال تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون[1] » .

ويهمنى وأنا بصدد الحديث عن المذاهب الوضعية فى تفسير التاريخ . أن أقول : لقد كان أول مظهر من مظاهر التفرق ، إنقسام هذه المذاهب إلى قسمين : مذاهب مثالية ، وأخرى مادية .

مثالية تقول بأسبقية الفكر والوعى فى الوجود على الأمور المادية الحسية كما تقول بأن الأشياء المعنوية العقلية هى الحقيقة وحدها[2] .

---

(١) سورة الأنعام : ١٥٣

(٢) أنظر خلاصة الفلسفة والإجتماع لابراهيم شديد ، ومحمد الشرقاوى جـ٢ ص ٨٧ ، والتفسير الاشتراكى للتاريخ . تعريب د / راشد البراوى ص ٣ ، ٤٣

وعذاهب مادية تقول بعكس ما سبق .. أى تقول بأسبقية كل ما هو مادى فى الوجود على الفكر والوعى ، وبأن الأشياء المادية هى الحقيقة وحدها[١] وهى العاملة على نظام آلى بحت لا أثر للعقل والشعور فيه[٢].

وبعد إنشطار المذاهب الوضعية إلى مثالية ومادية ، نجدها قد انقسمت إلى أقسام عديدة ، باختلاف المجالات التى تناولتها العلوم النظرية والتطبيقية ، وتنوعت المدارس الفرعية رغم انتمائها إلى كلا الشطرين الأساسيين المذكورين ، وذلك من مثل الأفلاطونية[٣] والهيجلية[٤] فى الشطر المثالى ، والداروينية[٥] والماركسية[٦] فى الشطر المادى .

(١) أنظر المرجعين . نفس الصفحات

(٢) راجع على أطلال المذهب المادى . محمد فريد وجدى جـ١ ص٣

(٣) الأفلاطونية : فكر وضعى مثالى ، يرفع من شأن مالا يدرك بالحواس الظاهرة ، ويحط من شأن ما يدرك بها من الماديات

(٤) يقول العقاد فى الهيجلية « لباب مذهب هيجل أن الوجود الحق إنما هو وجود الفكرة المطلقة » .

راجع « الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام ص٩٩

(٥) الداروينية: هى الفرض الفلسفى القائل بمادية الإنسان وحيوانيته من خلال فكرة التطور .

(٦) الماركسية : مذهب مادى له شعبتان . . شعبة الاقتصاد . تلك التى تدرس مسائل الاقتصاد وقضاياه من مثل: نظرية فائض القيمة ونظرية النسبية، وقانون العرض والطلب .. إلى غير ذلك من المسائل التى يقوم على دراستها متخصصون فى علم الاقتصاد

وأما الشعبة الثانية من الماركسية ، فهى التى تدرس تاريخ الأمم ، وتحاول فى دراستها هذه أن تكشف النقاب عن حياة الشعوب فى عصورها التاريخية الغابرة ، وأن تحدد لها — فى الوقت نفسه — مستقبلها وحياتها القادمة ، على نحو ما سأقوم بعرضه فى الصفحات التالية

إنها مدارس شتى يجدها الباحث فى مجال تفسير التاريخ البشرى ، الأمر الذى يصعب إحصاؤه وتقصيه ، ولذا سأقف على مدرسة واحدة من المدارس التى إليها أشرت ، ألا وهى المدرسة المادية الماركسية . . إذ هى صاحبة التفسير المدوى فى علم الاجتماع والشائع فى نحل الفكر المعاصرة .. ألا وهو التفسير المادى لتاريخ الأمم ، والذى وضعه وصاغ تصوراته [كارل ماركس] فى منتصف القرن التاسع عشر .. وإليك الآن البيان . . عرضا وتحليلا .

التفسير المادى للتاريخ البشرى كما أحبرت المصادر الماركسية :

يقوم التفسير المادى للتاريخ على أفكار يعتبرها الماركسيون أسسا يبنون عليها تفسيرهم المذكور ، ويحددون بها إطاره الذى يدور بداخله.. وتتلخص هذه الأفكار أو الأسس فيما يلى :

أولا : القول بأسبقية المادة فى الوجود على ما يقابلها من الأمور المعنوية .. فكر ووعى .. مشاعر ووجدانات ، الأمر الذى يترتب عليه، أن تكون الأمور الروحية نتاجا للمادة وإنعكاسا لها .. يقول ستالين فى تقرير المعنى المذكور « إن حياة المجتمع الروحية هى إنعكاس لظروف حياته المادية[١] » .

ويقول بعض المتخصصين فى المادية التاريخية — وهى النظرية التى تدرس فى جامعات روسيا — بيانا وإيضاحا لمكانة القول بأسبقية المادة من التفسير المادى للتاريخ « إن الإقرار بأولية الوجود الاجتماعى بالنسبة للوعى

(١) كتاب المادية الدايلكتيكية والتاريخية . تأليف ستالين ص ٢٨

الاجتماعى يعنى حل هذه المسألة حـــلا مادياً ، وهو يشكل أساس الفهم المـادى للتاريخ »[1] .

ثانياً : يقوم التفسير المـادى للتاريخ على القول بفكر التطور الجدلى.. وهى فكرة تحتوى على أمرين اثنين هما : التطور . والجدل .

أما التطور فيعرفه د / راشد البراوى — ترجمة للمختارات التى عربها لأنصار ومؤسسى نظرية التفسير المـادى للتاريخ — بقوله « نستطيع أن نفهم التطور على أنه سلسلة من عمليات متلاحقة من الصيرورة والزوال . وأساس هذا المبدأ : أن الوجود فى مشاقة مع نفسه . ويحتوى فى داخله على عراك وتمزق باطنى ، ولكنه عراك ينتهى فى الخطوة التالية، ولا يلبث أن يرفع ثم يعود من جديد . وهكذا باستمرار ، ولكن النتيجة العامة هى التطور المتقدم[2] ،

ويحدد أنصار المادية التاريخية موضوع التطور بقولهم : إن المادية التاريخية إذ تكشف قوانين تطور الانتاج المـادى وتثبت تبعية جميع الجوانب الأخرى من الحياة الاجتماعية للإنتاج المـادى . إنما تتيح لنا أن ندرك على وجه الضبط المنطق الموضوعى للتطور »[3]

أى أن التطور — فى تصور التفسير المادى إذن — هو مراحل التقدم للإنتاج المادى الذى تنبثق منه بقية جوانب الحياة من عقائد وشرائع

---

(١) كتاب المادية التاريخية — دراسة فى نظرية المجتمع الماركسية تأليف كيلله ، وكوفالسون ص ٣٦

(٢) كتاب التفسير الاشتراكى للتاريخ . تعريب د . راشد البراوى ص ١١

(٣) المادية التاريخية ص ٩١

وأفكار وسلوك ، والذى ترجع إليه كل التغيرات ونوعية المراحل التى مر بها المجتمع الإنسانى فى تاريخه .

هذا عن معنى التطور . أما عن معنى الجدل أو الديالكتيك . فيقول فيه : خالد بكداش — معرب كتاب المادية الدايلكتيكية — الديالكتيك هو علم التغيرات فى الفكر والطبيعة والتاريخ . وهذه التغيرات خاضعة لقوانين التناقض الثلاثة الآتية

١ — قانون التداخل والوحدة وصراع الأضداد .

٢ — قانون تحول التغيرات الكمية إلى تغيرات من حيث الكيف :

٣ — قانون سلب السلب[1] .

أى أن الجدل — فى تصور التفسير المادى — هو عبارة عن عملية تحليلية للتطور فى ظل القوانين المذكورة .

---

(١) المادية الدايلكتيكية ص ه ، وراجع التفسير الاشتراكى للتاريخ ص ١١ ، ١٢

واستأنس فى بيان قوانين الجدل بما كتب الدكتور / محمود عثمان ، إذ يقول « ولنبدأ فى بيان قوانين الجدل :

١ — قانون وحدة الأضداد وصراعها . وبيان هذا القانون : أن كل شىء ينطوى على الأضداد : الشىء ونقيضه ، وهذان الطرفان المتضادان لا يمكن أن يظلا فى سلام ، فلابد أن ينشأ الصراع بينهما، وهذا الصراع لا يقضى على وحدة الشىء ، ولكنه يؤدى إلى أن يتغلب الطرف الذى يعبر عن التقدم على الطرف الآخر .

٢ — قانون الانتقال من التغير الكمى إلى التغير الكيفى . وبيان =

. . . . . .

= هذا القانون : أن التغير يتم أولا فى الكم بالتدريج، بمعنى : أن خصائص الشيء أو صفاته المتفرقة تحدث فيها تغييرات ، فتزيد أو تنقص : ولكن هذه الزيادة أو هذا النقصان عندما يصل الى حد معين يحدث تغير كيفى .

بمعنى : أن طابعه الأساسى يتغير ويصير شيئاً آخر — فالتغير الكمى هو التطور بالتدريج ولكن التغير الكيفى انقلاب ثورى فجائى يغير طابع الشيء .

٣ — قانون سلب السلب . وبيانه : أن الجديد ينسخ القديم وينفيه ، وهذا مايسمى بالسلب ، فإذا اكتمل هذا الجديد ، ووصل إلى درجة التغير . تلاه جديد آخر ، وهذا الجديد الآخر يسمى بسلب السلب ، وذلك أن الشيء يحمل فى طياته نقائض تؤدى إلى الصراع الذى يؤدى إلى التطور . ويظل الشيء يتغير تغيراً كمياً ، حتى إذا اكتمل تغيره يتغير تغيراً كيفياً ، ويصبح شيئاً جديداً . ولكن هذا الجديد أيضا يمر بنفس الطريقة ، حتى يسلبه جديد آخر ، وهذا الجديد الآخر يسمى بسلب السلب وهكذا والتغير بهذا الشكل يستمر إلى مالا نهاية . . والتطور يطرد فى العالم العضوى وفى الحياة الاجتماعية .

انظر الفكر المادى الحديث وموقف الاسلام منه . د / محمود عثمان ص ٢٥٧، ٢٥٨ .

وراجع أيضاً : الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام للعقاد ص ٢٤٨ .

وراجع الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة للمودودى ص ٢٦، ٢٧

وراجع أيضاً : تهافت الفكر المادى والتاريخى للدكتور / محمد البهى ص ٢٦

يؤكد أنصار المادية التاريخية على مكانة التطور الجدلى من التصور الماركسى . فيقولون « إن نظرية التطور الاجتماعى الماركسية هى المادية التاريخية »(١) .

ثالثاً : يقوم التفسير المادى للتاريخ البشرى أيضاً ، على إلحاد الدهريين القائلين بقدم العالم وأبدية الطبيعة ، والجاحدين بوجود الإله الخالق . . يقول ستالين : « لقد كتب لينين بصدد المفهوم المادى عند فيلسوف العهد القديم [هيراكليت] الذى جاء فيه « العالم .. واحد ، لم يخلقه إله ولا إنسان . وقد كان ولا يزال . وسيكون شعلة حية إلى الأبد . . .

فقال : أى — لينين — : يالله من شرح رائع لمبادىء المادية الدايلكتيكية »(٢)

واستبعاد الماديين للقول بالإله الخالق ، يرجع إلى زعمهم(٣) أن الدين أمر مناقض للعلم ، وإلى زعمهم(٤) أن الدين بدعة صنعتها طائفة الأغنياء ، ولذلك فإن أنصار المادية التاريخيه يقومون من خلال حزبهم « بعمل منهاجى غايته مساعدة الشغيلة فى التخلص نهائياً من العقائد والأوهام والخرافات الدينية »(٥)

(١) المادية التاريخية : تأليف كيلله وكوفالسون ص ١٥

(٢) المادية الدايلكتيكية : تأليف ستالين ص ١٧

(٣) انظر التصريح بهذا الزعم فى الكتاب السابق ص ٢٢

(٤) راجع الزعم المذكور فى كتاب المادية التاريخية ص ٣١٣

(٥) الكتاب السابق ص ٣١٧

أقول : وهكذا يتضح لنا كيف يقوم التفسير المادى للتاريخ على الإلحاد والجحود كما إتضح من قبل ، كيف يقوم التفسير المذكور على القول بأولية المادة وأسبقية وجودها على ما يقابلها فى عالم الفكر والوعى ، والشعور والوجدان ثم كيف يقوم أيضا على القول بفكرة التطور الجدلى ...

إنها إذن أسس ثلاثة[1] قام عليها التفسير المادى للتاريخ البشرى ، وهى أسس سولت لأصحاب هذا التفسير كثيراً من المفاهيم المتعلقة بدراسة أحوال الأمم وتفسير تاريخها .

ولعل الأسس السابقة الذكر ، سولت لهؤلاء الماديين الماركسيين ، أن يحصروا جوهر التاريخ الإنسانى فى معرفة قوانين الاقتصاد ، وأن يربطوا بالإنتاج المادى أحداث الشعوب كلها ، بل أن يفسروا به تاريخها ، إذ الإنتاج — فى زعمهم — هو الذى يجعل من تاريخ الشعوب ومن أحداثها سلسلة متماسكة الحلقات ، ووحدة متفاعلة الجزئيات ، على نحو ما قرره التفسير الإسلامى لعقيدة التوحيد .

يبين الماديون مدى التأثير الشامل للإنتاج المادى فى تاريخ سائر الأمم ، فيقولون « إن الإنتاج بالذات هو الذى يحدد بنية كل تشكيلة إجتماعية ، كما يحدد تطورها والإنتقال من تشكيلة إلى أخرى وإتجاه

(١) الأسس الثلاثة هى :
(أ) القول بأسبقية المادة فى الوجود .
(ب) القول بفكرة التطور الجدلى .
(ج) القول بالدهرية .

العملية التاريخية ، ويضفى عليها طابع الوحدة والتكامل وهنا يقوم بدوره المحدد فى تطور المجتمع كله »[1] .

وكذلك سولت الأسس السابقة للماركسيين ، أن يصوروا للإنتاج المادى أطواراً محددة ومرتبة ، بل أطواراً لا يستطيع الإنتاج المادى أن يحيد عنها على مدى الحياة . يقول ستالين « لقد سجل التاريخ خمسة أنواع أساسية لعلاقات الإنتاج .. المشاعية الإبتدائية ، الرق ، النظام الإقطاعى ، النظام الرأسمالى ، والنظام الإشتراكى »[2] .

وبناء على هذه الأنواع الخمسة لعلاقات الإنتاج ، حدد الماركسيون مراحل التاريخ البشرى ، وإلى هنا .. يجدر بى — بعد ما ذكرت أهم الأسس التى قام عليها التفسير المادى ، وأهم ما ترتب عليها من جزئيات تفرعت عنها — يجدر بى أن أقف وقفة أبين فيها التصور المادى للتاريخ البشرى فى ضوء ما ذكرت من أسس وتفريعات .

وفى ذلك أقول : يزعم أنصار التفسير المادى المذكور وواضعوه ، أن هذا التفسير قد أحاط ولا يزال يحيط ، بتاريخ الأمم والشعوب إحاطة تفرد بها من بين سائر التفسيرات العديدة .. يقول أحد الماركسيين « إن النظرة الماركسية هى التعميم النظرى للتطور التاريخى كله »[3] .. وإستناداً إلى هذا التعميم النظرى فإن المادية لم تفارق الماركسية خطوة

(١) المادية التاريخية ص ١٢٠ ، ١٢١ ، وراجع المادية الدايلكتيكية ص ٣٧
(٢) انظر المرجع الأخير ص ٤١
(٣) اللينينية ومعركة الأفكار . تأليف [الينامورد جينسكايا] ترجمة . إسما حليم ص ١٥٩

واحدة من خطواتها ، وهى بصدد دراستها لحياة الأمم وتفسيرها لتاريخها . ولذا لم يكن عجبا أن تستوى — فى ميزان الماركسية — دراسة الإنسان .. لبنة المجتمع الأساسية ، بدراسة الأسرة .. لبنة المجتمع الكبرى ، بدراسة المجتمع كأمر كلى ومضمون عام .

أما عن دراسة الماركسية — واضعة التفسير المادى — للانسان ، فهى دراسة تقوم على التصور السلبى فى تحليلها وتقييمها للإنسان ، ويتجلى هـذا التصور السلبى فى تقريرها بالتأثير الشامل للعوامل الاقتصادية فى مختلف شئون الإنسان ، حتى عقيدته وخلقه . بل فى حصر الدراسة الماركسية لأوجه الإختلاف بين الإنسان والحيوان ، فى الإنتاج المادى. يقول الماركسيون ، إعتماداً على الانتاج ينفصل الانسان عن العالم الحيوانى »[1] .. أى أن الانسان — فى تحليلهم إذن — كائن لم يتفرد طوال تاريخه إلا بما إنفصل به عن الحيوان الأعجم .. أى بالانتاج المادى فقط .. سعياً وراء تحصيله وجريا من أجل توفيره وتكثيره .

وحسب الانسان من تاريخه — فى التصور الماركسى — أن تحتويه المادة فى كل شأن من شئونه المادية والروحية . . . ولا عجب فى هـذا ولا غرابة ، بعد إذ قرر أصحاب هذا التصور من الماركسيين : أن المادة هى الشىء الوحيد الذى ينبثق منه كل ما يتعلق بالإنسان من أمور معنوية وحسية على نحو ما سبق .

وإذا إنتقلنا بعد ذلك ، لدراسة التفسير المادى لتاريخ الأسرة ، وجدناها إمتداداً لموقف الماركسية من تاريخ الإنسان ، ويتمثل ذلك فى ربط التفسير المادى للأسرة بالعوامل الاقتصادية .. سواء كان ذلك فى نشأة الأسرة وبدء ظهورها ، أم فى حاضرها ومستقبلها .. يقول [انجلز]

(١) المادية التاريخية ص ٥٥

عن الأسرة [كانت الزيجة الوحدانيه أول شكل للأسرة مبنى لا على أحوال طبيعية ، بل على أحوال اقتصادية][1] .. ويقول باحثاً المادية التاريخية [كيلله ، وكوفالسون] فى إرتباط تاريخ الأسرة بالعوامل الاقتصادية « تتحدد أشكال العائلة وإتجاهات تطـورها تبعاً للقانون العام لتطور الظواهر الاجتماعية ، وتبعاً للأحوال والحاجات الاقتصادية »[2] .

وكفى بالنقلين المذكورين دلالة على مادية تاريخ الأسرة فى التفسير الماركسى .

ثم إذا إنتقلنا — بعد ذلك — لدراسة التفسير المادى لتاريخ المجتمع كشىء كلى ومضمون عام ، وجدناها — أيضاً — إمتـداداً لموقف الماركسية من تاريخ الإنسان وتاريخ الأسرة وذلك من حيث معاداة التفسير المادى للفطـرة العقدية ، والأمور المعنوية ، والتصرفات الإرادية ... ومن حيث إقرار التفسير المادى — فى الوقت نفسه — للنزعة الالحادية ، والتغـيرات الحتمية القهرية ، والعوامل المادية الاقتصادية ، مما يترتب عليه أن يكون المجتمع ليس إلا شيئا ماديا فقط يقول باحثاً المادية التاريخية « لا يختلف المجتمع فى شىء عن سائر المواضيع المادية »[3] .. ويقول أحد المشايعين للتفسير المادى للتاريخ « إن الأساس الذى يقوم عليه بناء المجتمع اقتصادى فى حقيقته وجوهره »[4] .

(١) أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة [فردريك انجلز] ترجمة: أديب يوسف ص ١٠١

(٢) المادية التاريخية ص ٨٣

(٣) الكتاب السابق ص ٣٣

(٤) التفسير الاشتراكى للتاريخ ص ١٨

ويحق لنا أن نفهم من النقول المذكورة . أن العوامل الاقتصادية بالنسبة للتفسير المادى للتاريخ ، هى كل شىء فى فكر واضعيه ، وهى التى تحدد لكل أمر قيمته وقدره ، وهى التى يفسر بها تاريخ كل شىء ومراحل حياته على النحو الذى أسلفت عرضه ، وعلى النحو الذى قرره بيان الحزب الماركسى إذ يقول « إن الأسلوب الاقتصادى السائد فى الإنتاج والتبادل يشكل فى كل حقبة تاريخية معينة مع التنظيم الإجتماعى المنبثق بالضرورة عنه الأساس الذى يقوم عليه تاريخ هذه الحقبة السياسى والفكرى ، والذى يمكن بالاعتماد عليه فقط تفسير هذا التاريخ »(١) .

إن التفسير المادى للتاريخ البشرى إذن ، هو التفسير الذى يطبق تصوراته الماديه النابعة من العوامل الاقتصادية ، على دراسته للمجتمع البشرى ، بما يتكون منه من أفراد ، وبما ينشأ فيه من علاقات ، وما يحدث فيه من وقائع ، وما يمر به تاريخه من مراحل محددة ، ثم ما يظهر فيه من تيارات فكرية وملل ونحل عقدية .

وأرى أن التفسير المادى للتاريخ — بهذه الصورة التى أوجزت الكلام فيها — موضوع له أخطار بعيدة تجاه الحقائق العلمية عامة ، وتجاه العقيدة الإلهية خاصة ، ومن هنا يتحتم علينا أن نتصدى له ، لنفند مزاعمه ونبطل دعاواه . وهذا ما تشتمل عليه النقاط التالية إن شاء الله تعالى .

---

(١) بيان الحزب الشيوعى ص١٨ ، وراجع التفسير الاشتراكى للتاريخ ص ١٤٠ ، ١٤١

التضليل الماركسى فى ميدان الماديين :

من السهولة بمكان ، أن أحشد فى البداية ، ما زخرت به الكتب الإسلامية من الأدلة البينة والبراهين الدامغة التى تبطل كل ما ذهب إليه أصحاب التفسير المادى للتاريخ ... لكنى آثرت أن أواجه هذا التفسير مواجهة نابعة من المصادر التى استند إليها واضعوا التفسير أنفسهم فى دعواهم ، وصادرة عن الباحثين التجريبيين الذين لا ينكر الماركسيون عليهم جهودهم ، ولا يقدحون فى تجاربهم ،

ومن هنا أستطيع أن أرد على أصحاب التفسير المادى سهامهم فى نحورهم متجنبا بذلك عناء الجدل ومجهود المحاورة ، لأن ردودى عليهم ستكون من باب : وشهد شاهد من أهلها .

وفى ضوء هذا أبدأ بما يتعلق بالأسس التى بنى عليها القوم تفسيرهم المادى للتاريخ فأقول : لقد زعم الماركسيون : أن المادة سابقة فى الوجود على الأمور المعنوية ، والعوامل الروحية .

والماركسيون فى زعمهم هذا خاطئون ، لأنهم بهذا يضعون العربة أمام الدابة التى تجرها . ثم إن الحقيقة التى اهتدى إليها الباحثون فى تجاربهم تثبت أصالة الفكر والوعى على المادة ، وأكتفى هنا برأى باحثين متخصصين عملا على تدعيم التفسير المادى للتاريخ وترسيخ تصوراته . حيث قرر هذان الباحثان أسبقية الوعى على المادة ، وأصالة الفكر على الشىء المحسوس ، وفى ذلك يقولان « الناس كائنات واعية وكل ما يفعله كل منهم يخطر مسبقا فى باله بنحو أو بآخر »(١) .

ويقولان أيضا « إن الشىء المحسوس يتغير ويتحول وفقا لأهداف

---

(١) المادية التاريخية ص٦

الانسان والأهداف والتطلعات والمعارف تتجسد وتصبح شيئا ماديا»[1].

وأعتقد أنه لا حاجة بنا إلى تعقيب على التقريرين المذكورين، والموضحين زيف الأساس الأول القائل بأسبقية المادة فى الوجود.

ثم أنتقل إلى تفنيد الأساس الثانى، والذى زعم فيه الماركسيون: أن كل شىء يحكمه قانون التطور الجدلى.. أى قانون التغير الناتج عن التناقض والتضاد والمؤدى إلى النضال والصراع، وانتحل الماركسيون لقانونهم هذا صفة العموم والاستمرار ليطبقوه على سائر القضايا الفكرية التى يكون على رأسها قضية التاريخ البشرى ومن ثم قرر دولاء: أن الشعوب تتطور فى مراحلها التاريخية بالنضال والصراع الذى يؤدى بها إلى مدارج الرقى وسماء التقدم.

لقد زعم الماركسيون هذه التصورات الزائفة، وأجهدوا أذهانهم لتقريرها، وأنفقوا الوقت الطويل فى توضيحها، لكنهم ما لبثوا أن نقضوا أنفسهم بأنفسهم حين سلبوا ما انتحلوه لقانون التطور الجدلى من عموم واستمرار، وأعلنوا دون خجل أو حياء.. توقف العمل بهذا القانون وانتهاء مفعوله، فيما أسموه بالمرحلة الشيوعية من تاريخ الشعوب، وعللوا ذلك بأن هذه المرحلة الخاتمة للتاريخ سيحل فيها السلام والأمان محل الصراع والنضال، وستحل فيها الأخوة والسعادة محل التناحر والمشاحنة وفى هذا المعنى يقولون «إن الشيوعية إنما هى مجتمع يقيم فى الأرض السلام والعمل والحرية والأخوة والسعادة»[2].

ولنا هنا وقفة نقول فيها: نحن لا ندرى كيف استثنى القوم مرحلة الشيوعية من النضال والصراع، بينما يقررون أمرين أساسيين هما:-

(١) الكتاب السابق ص ٤١

(٢) موجز تاريخ الحزب الشيوعى ص ٤٣٦

(أ) أن الشيوعية هى قمة التطور والتقدم[1].

(ب) وأن دائرة الصراع والتناحر تزداد سعتها بالتطور والتقدم[2].

أى أن ما يقررة الماركسيون يشير إلى أن الصراع والتناحر يطرد ظهورهما مع التقدم الصناعى، بل سيزداد ظهورهما فى المرحلة الشيوعية، إذ هى — فى زعمهم — قمة التطور والتقدم.

والسؤال الذى يجب طرحه الآن: إذا كان الماركسيون يقررون هذا، فما لهم يعودون فيقولون هنا بارتفاع الصراع والتناحر فى المرحلة الشيوعية ؟؟ !!

إنه تناقض فى الفكر وتخبط فى العقل، ليس له إلا مخرجان:

إما أن تكون المرحلة الشيوعيه تمثل سفح التقدم والتطور، حتى لا يكون للصراع مجال ينمو فيه حينئذ... وإما أن نحكم على ارتفاع الصراع فى المرحلة الشيوعية التقدمية — فى زعمهم — بأنه ردة فى أساس من أسس التفسير المادى للتاريخ.

أقول: هذان المخرجان أو الاحتمالان لا يستطيع الماركسيون حيالهما جدلا ومناقشة، كما لا يستطيع قانون التطور الجدلى أمامهما بقاء ومقاومة.

ثم أنتقل إلى تفنيد الأساس الثالث والذى أعلن فيه الماركسيون أن تفسيرهم للتاريخ يقوم على الإلحاد، والقول بقدم العالم وأبدية الطبيعة، وعلل القوم موقفهم الدهرى بعلتين:-

الأولى: زعمهم أن الدين ليس شيئا فطريا.

(١) انظر تقرير هذا المعنى فى «المادية التاريخية» ص ٣٨٤

(٢) انظر تقرير هذا المعنى فى «بيان الحزب الشيوعى» ص ٨٠

الثانية : زعمهم أن الدين مناقض للعلم والبحوث المادية .

والماركسيون — فيما ذهبوا إليه وزعموه — منكرون للحقائق التي اهتدى إليها الباحثون عن طريق تجاربهم العلمية وبحوثهم التطبيقية .

أما عن دعوى الماركسيين قدم العالم ، وجحودهم وجود الإله الخالق ، فأكتفي في إظهار زيفه ، بما انتهى إليه الباحث الأمريكي المعاصر [إدوارد لوثركسيل] في نتائج أبحاثه التطبيقية إذ يقول : « أثبتت البحوث العلمية دون قصد : أن لهذا الكون بداية ، فأثبتت تلقائياً وجود الإله ، لأن كل شيء ذا بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته . ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأول — الخالق الإله »[1] .

وأما عن دعواهم أبدية الطبيعة ، فأكتفي في إبطالها بذكر النتيجة التي انتهى إليها د . جوستاف لوبون . حيث يقول في تقريره له « المادة التي كان يظن أنها غير قابلة للزوال تتلاشى بيطء بالتحلل المستمر للجواهر الفردة التي تكونها »[2] .

ولنا أن نتبين — في ضوء هذا التقرير التجريبي — خطأ الدهريين في قولهم : بأبدية الطبيعة وخطأ الزعم العلمي القائل : أن المادة لا تفنى .

وأما عن زعم الماركسيين عدم فطرية التدين ، فإن زيفه يظهر فيما يقرره د. ماكس نوردوه وذلك حين يقول عن الشعور الديني « هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين ، كما يجده أعلى الناس تفكيراً ، وأعظمهم حدساً ، وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية »[3] .

(١) نقلا عن « الإسلام يتحدى » ، ص ٥٠ .
(٢) نقلا عن كتاب « على أطلال المذهب المادي » ، جـ ١ ص ٣٨ .
(٣) نقلا عن كتاب « الدين » ، د. دراز ص ٨٩ .

أقول : إن هذا التقرير لا يثبت فطرة التدين فحسب ، بل يثبت خلوده وبقاءه أبد الدهر وعلى مدار التاريخ .

وأما عن زعم الماركسيين مناقضة الدين للعلم والبحوث المادية ، فيكفي لإبطاله أن أذكر اعترافا من اعترافات أعداء الإسلام ، والتي تنص صراحة على أن الدين الإسلامي لم يكن مؤيداً للعلم وحاثا على المعرفة فحسب ، بل كان الرائد الذي حمل لواء المعرفة النظرية والتطبيقية عصوراً متطاولة ، والمصدر الذي أخذت منه أوربا أسس المعرفة التي بنى عليها الباحثون تجاربهم التي يمنون على عالمنا بنتائجها في الوقت المعاصر .. يقرر الاعتراف المذكور [روبرت بريفولت] فيقول « ما من ناحية من نواحي تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير ، وآثار حاسمة لها تأثير كبير »[1] .

وهكذا يسجل التاريخ وتشهد الحقائق على ألسنة أعداء الدين الإسلامي ، بكذب ما زعم الماركسيون من مزاعم .. والفضل ما شهدت به الأعداء !!

وأنتقل الآن — بعد انتهائي من تفنيد الأسس التي بنى عليها الماركسيون تفسيرهم المادي للتاريخ — إلى تفنيد دعوى القوم عمومية نظرتهم للمجتمع البشري كله ، وزعمهم الإحاطة الشاملة لتاريخه .. إنساناً وأسرة ومجتمعاً .

وفي هذا أقول : لقد ضلت الماركسية الطريق في نظرتها للإنسان ، حين أعلت من شأن جانبه المادي ، وضيقت الخناق على جانبه الروحي ،

(١) نقلا عن « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » ، ص ١٢٨ .

الأمر الذى سول لها أن تجعل الإنتاج المادى فقط هو كل تاريخ الإنسان، وفرق ما بينه وبين الحيوان (١).

ولعلى أستطيع هنا، أن أهدى الماركسية من ضلالها، وأعيد إليها رشدها، حين أذكر لها، ما انتهى إليه «الكسيس كاريل» فى رحلته العلمية، إذ ينأى بالإنسان أن يحصر أمره فى دائرة المادية الضيقة بالنسبة له، وفى هذا يقول: «علينا أن نحرر الإنسان من الكون الذى خلقته قريحة علماء الفيزيقيا والفلكيين ... إن عالم المادة الجامدة، على ما فيه من جمال وعظمة ضيق غاية الضيق بالنسبة إلى الإنسان ... والإنسان هو فى آن واحد شىء مادى، وكائن حى، ومحل لأوجه نشاط عقلى» (٢).

ثم لا يفوتنا أن نبدى التعجب من غفلة الماركسيين أو تغافلهم عن فساد تمييزهم الانسان عن الحيوان بالانتاج المادى، لأن بدائه الأمور ترشد إلى أن غالبية آحاد الحيوانات منتجة إنتاجا مادياً آلياً لا يخفى على عاقل مطلقاً.. إذ يوجد هناك من الحيوانات ما ينتج الأصواف والأوبار والأشعار والجلود ذات المنافع الجمة والفوائد المتعددة، كما يوجد نوع آخر ينتج اللبن الذى تقوم عليه صناعات غذائية عديدة، كما يوجد من من الحيوانات ما ينتج العسل المصفى الذى جعله الله شفاءاً للناس، كما يوجد من الحيوات ما ينتج اللحم الشهى الذى هو غذاء ضرورى للإنسان.

وأخلص من هذا لأقرر: إن أصحاب التفسير المادى ضالون مضللون، حين ميزوا الانسان عن الحيوان بالانتاج المادى فقط، وهذا أمر يظهر زيف تحليلهم المادى للإنسان وكذب زعمهم تشخيص كيانه فى الحيوانية المنتجة، بل يظهر تضليلهم الماركسى لتاريخ الانسان.

---

(١) تقول الماركسية «اعتماداً على الإنتاج ينفصل الإنسان عن الحيوان». انظر المادية التاريخية ص ٥٥.

(٢) الإنسان هذا المجهول ص ٤١٨ باختصار.

وإذا انتقلت الآن، لبيان التضليل الماركسى لتاريخ الأسرة، والزعم بأن هذا التاريخ مرتبط هو الآخر بالإنتاج المادى والنشاط الاقتصادى، فحسبى أن أقول: على الماركسيين أن يعيدوا النظر فيما زعموه لتاريخ الأسرة من كونه أمراً مرتبطاً بالإنتاج المادى والأحوال الاقتصادية.. ويتضح كذب هذا الزعم فى قيام النظام الأسرى داخل المجتمع الغربى الرأسمالى، وداخل المجتمع الشيوعى سواء بسواء، ذلك لأن المجتمع الشيوعى لم يطق صبراً على تحطيم الأسرة ومحاربتها فارتد عن القول بإشاعة النساء للرجال كافة، بعد أن علمته التجارب الواقعية، أن الأسرة هى المصنع القادر على صنع الرجال الذين يعتمد عليهم، وأن الأسرة هى المدرسة الوحيدة التى تخرج بنين وبنات مكتملى النمو العقلى والجسمى.. معتدلى الميول والاتجاهات.. أسوياء المشاعر والعواطف.. الأمر الذى نتبين معه، أن قيام الأسرة على مدار التاريخ البشرى شىء فطرى، وأن قيام الأسرة لا علاقة له بعوامل الإنتاج وعوامل الاقتصاد.

وإلى هنا يتبقى لى من دعاوى القوم، تصورهم المادى للمجتمع، وتفسيرهم المادى لتاريخه. وفى إظهار زيف هذه الدعوى أقول: على الماركسيين أن يعيدوا النظر فى تصورهم المذكور وتفسيرهم المزعوم ولا عليهم إلا أن يرجعوا إلى كتب الماركسية ذاتها، ليروا خطأهم الفاحش حين زعموا التأثير الكلى للأحوال الاقتصادية فى التاريخ البشرى.. تحديداً لطابعه واتجاه تغيره ومصيره المرتقب، ولينظروا قول الباحثين المتخصصين فى المادية التاريخية [كيلله، وكوفالسون].. فيما يعتبر معول هدم للتأثير الكلى لعوامل الاقتصاد فى التاريخ البشرى.. يقولان: «إن لكل شعب تاريخه الفريد، رغم أن القوانين ذاتها تفعل فعلها فى جميع البلدان التى لها نظام اجتماعى واقتصادى واحد» (١).. ويقول نفس الباحثين

---

(١) المادية التاريخية — دراسة فى نظرية المجتمع الماركية ص ٤٥.

فيما أعتبره اعترافا صريحاً يجعل عالى التفسير المادى سافله «لقد درسنا الخط العام لتطور التاريخ العالمى بالقدر الذى تحدده قوانين تطور الإنتاج المادى ولكن هذا لا يعنى أننا أوضحنا بالتالى التطور الاجتماعى فى كل نقطة من العملية التاريخية ، فإن التاريخ الملموس أغنى بكثير ، وفيه تفعل فعلها جملة كبيرة من العوامل التى تنوع العملية التاريخية »(١) .

ثم يورد الباحثان اعترافا لـ [فردريك انجلز] بمثابة دليل على صحة قولهما السابق «قال انجلز: يقول المفهوم المادى عن التاريخ أن إنتاج وتجديد إنتاج الحياة الفعلية هما فى آخر تحليل العامل المحدد فى العملية التاريخية . وأكثر من ذلك لم نؤكد لا [ماركس] ولا أنا . أما إذا شوه أحدهم هذا بمعنى أن العامل الاقتصادى هو العامل المحدد الوحيد ، فإنه يحول هذا التأكيد إلى جملة مجردة ، لامعنى لها ، ولا تدل على شىء »(٢) .

أقول : ماذا بعد هذا الاعتراف الواضح ؟. والاعتراف سيد الأدلة . ماذا يمكن أن يقال بعد هذا الاعتراف الصريح ؟ وهو اعتراف نطق به [فردريك انجلز] شريك [كارل ماركس] وسجله كتاب ألفه باحثان متخصصان فيما يسمى بالمادية التاريخية ، وأوضحا عنوان كتابيهما بعبارة « دراسة فى نظرية المجتمع الماركسية » .

أيكون بعد ذلك كله مجال للقول بأن الإنتاج المادى ، هو العامل الوحيد الذى يحدد للتاريخ البشرى طابعه واتجاهه ، ومن ثم تصبح مهمة التاريخ محصورة فى معرفة قوانين الاقتصاد وتتبع حركات الإنتاج المادى فقط؟!! ألا سفه نفساً ذلك الذى يقول بمثل ماقال به الماديون التاريخيون !!

ثم لا أدرى ماذا يفعل الماركسيون أمام سقوط الحتمية التاريخية التى فرضها [ماركس] و[انجلز] منذ أكثر من قرن .. وهى حتمية تحول الدول الرأسمالية المعاصرة إلى المرحلة الشيوعية . . كتب [انجلز] فى مبادىء

(١) الكتاب السابق ص ١٤٨ (٢) الكتاب السابق ص ١٤٨ .

الشيوعية يقول : إن الثورة الشيوعية لن تكون وطنية وحسب، بل ستجرى كذلك فى آن واحد فى جميع البلدان المتمدنة ، أى على الأقل فى بريطانيا وأمريكا وفرنسا وألمانيا (١) .

ويمضى على هذه التنبؤات الماركسية المحتومة عشرات السنين، ولا تزداد التنبؤات إلا كذباً ، ولا تزداد البلاد الرأسمالية المذكورة إلا بعداً عن الشيوعية ، فضلا عن عدم تحولها إليها ، بل إن أحداث الواقع الدولى المعاصر ليشهد تحولا عكسياً يعلن على الملأ إفلاس فلسفة الشيوعية ، وجر زعمائها أذيال الخيبة والفشل فى عدد من دول أوروبا الشرقية (٢) .

أقول : إن هذا الواقع ليدمغ دعاوى أصحاب التفسير المادى للتاريخ البشرى ، ويشهد بزيف أفكاره ومزاعمه ، وإنه لواقع ينبؤنا عن مدى الصدق فى الحكم الصادر على الماركسية نظراً وفكراً ، وذلك حين يقول أحد المترجمين « ، والخلاصة : هى أن الشيوعية نزعة فكرية لم ينهض أى دليل مادى على أنها خطوة تقدمية ، ومن هنا يصفها المفكرون العصريون بأنها فلسفة ميتة لا تستطيع أن تلد مولوداً حياً »(٣) .

كذلك هو واقع ينبؤنا عن مدى الصدق فى الحكم الصادر على الماركسية تطبيقاً ومصيراً .

وذلك حين يقول المترجم السابق « لم يبق من الماركسية الأصلية شىء تقريباً ... فقد ماتت أو احتضرت فى الغرب ... أما فى الشرق [روسيا] ...

(١) الهادية التاريخية ص ٢٤٧ ، وراجع كتاب الماركسية لإنجلز ترجمة ماهر نسيم ص ١٠١ .

(٢) وعلى القارىء أن يتأمل ما يجرى الآن فى عام ١٩٨٩ م ... من أحداث تقع فى بولندا وبلغاريا وألمانيا الشرقية . حيث يتساقط زعماء الشيوعية ، ويطوى التاريخ صحائفها واحدة بعد أخرى ،

(٣) الماركسية لإنجلز ترجمة ماهر نسيم ص ١٥٠

فإن رسوخ الحكم الشيوعى ، أدى إلى الإبقاء على بقية عقيدة سطحية من مذهب ماركس المادى الجدلى ، واستخدمت هذه البقية لتقوية سلطان الشيوعية ، وتدبير الطغيان وانتهاك الضمير الإنسانى .

وهكذا فضح التاريخ هذا القائد العظيم — أى ماركس — كما فضح كثيرين من أولئك الذين حاولوا تفسير قوانينه »[1] .

هذا وقد آن لى أن أقف وقفة إسلامية ، حول المزاعم السابقة للتفسير المادى للتاريخ زيادة إيضاح لتضليله .

التضليل الماركسى فى ميزان الإسلام :

إن قليلا من التأمل فى سجل الأمم ، يبين فى وضوح تضليل الماركسيين فيما زعموا من تفسير مادى للتاريخ . وإن قليلا من النظر لما يجرى فى الواقع الاجتماعى ، يظهر فى جلاء أراجيف القوم الضالين فيما أشاعوه من تصورات .

وفى هذا المقام أود أن ألقى مزيدا من الضوء على زيف دعوى هذا التفسير الذى يضع كل شيء فى قالب المادة ، ويقيم كل أمر بمعيارها ، وينسب التأثير الكلى فى سائر الأشياء للمادة ... يستوى عند القوم فى تصوراتهم المادية هذه ، الفطرة العقدية ، ومختلف النواحى الفكرية ، وشتى العلاقات الإجتماعية

وأبدأ تفنيدى لهذه الزيوف الماركسية بتقرير أمر بديهى .. يتلخص فى : أن المادة لا تصلح أبداً أن تكون معياراً تقيم به الأمور ، وسيفاً مسلطاً يؤثر تأثيرا كليا فى سائر الأشياء . لأن هذا أمر مخالف للواقع الذى يدل فى وضوح على أن العامل الحاسم المؤثر فى سائر الأشياء هو الفكر وليس المادة . يقول د/دراز فى بيان انقياد الناس بالفكر ، حتى لو أرادوا أن يعيشوا تحت سلطة النظام المادى « لقد ضل قوم قلبوا هذا

(١) السابق ص ١٠٤

الوضع ، وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران فى الحياة المادية والاقتصادية بل يتأثران بها .

هذا الرأى الماركسى هو — قبل كل شيء — نزول بالإنسان عن عرش كرامته . ورجوع به القهقرى إلى مستوى البهيمية ، ثم هو تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة فى سلوك الأفراد والجماعات فى كل عصر ، فانه لكى يختار الناس أن يحيوا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح لا بد أن يقنعوا أنفسهم بادىء ذى بدء بأن سعادتهم هى فى هذا النوع من الحياة . فالإنسان مقود بفكرة صحيحة أو فاسدة ، فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شيء ، وإن فسدت فسد فيه كل شيء[1] .

وأود أن أضيف . إن الفكر — الذى يقود الانسان دائماً — إذا كان تابعاً من اعتقاد دينى وإيمان قلبى ، فهو الرائد والمهيمن والمسيطر على كل شيء .

وهناك فى سجل التاريخ الموثوق من مصدره الالهى ، تقص علينا سورة الشعراء . . موقف سحرة فرعون حين ألقوا بأنفسهم ساجدين ، معلنين إيمانهم برب العالمين ، فور مشاهدتهم سماوية ما جاء به موسى عليه السلام . قال تعالى «فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين * قالوا لاضير إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين[2] .

إن موقف هؤلاء السحرة ، يبين وضوح سلبية التأثير المادى أمام إيجابية

(١) الدين ص ١٠١

(٢) سورة الشعراء من الآية رقم ٤٥ إلى الآية رقم ٥١

النفوذ الفطرى للعقيدة الدينية ، حين تشرق الأرواح بضيائها ، وتنتفض القلوب لوقعها . . إن تحول السحرة من الشرك إلى التوحيد ، يدل دلالة واضحة على ما للعقيدة من تأثير كلى شامل فى سير كافة الأحداث الإنسانية ، كما يدل أيضاً على خواء المادة من التأثير فى حياة الناس وفى تاريخهم البشرى ، ذلك لأنه لو كان لسلطان المادة على النفوس ما لسلطان العقيدة ، ما تفلت هؤلاء السحرة من سيطرة فرعون ، رغم ما له من سلطان ونفوذ ، ورغم ما أغراهم به من مال وجاه من جهة ، وما استهان هؤلاء السحرة بما توعدهم به من تعذيب وتنكيل من جهة أخرى .. يقول الأستاذ سيد قطب فى تعقيبه على موقف هؤلاء السحرة « إنه موقف حاسم فى تاريخ البشرية بإعلان إفلاس المادية !!

فهذه القلة التى كانت منذ لحظة تسأل فرعون الأجر على الفوز ، وتمنى بالقرب من السلطان . هى ذاتها التى تستعلى على فرعون وتستهين بالتهديد والوعيد ، وتقبل صابرة محتسبة على التنكيل والتصليب . وما تغير فى حياتها شىء ، ولا تغير من حولها شىء فى عالم المادة إنما وقعت اللمسة الخفية التى لا تنتظر أى تغيير فى الواقع المادى ، ولكنها هى التى تغير الواقع المادى ، وترفع الانسان فى عالم الواقع إلى الآفاق التى لم يكن يطمح إليها الخيال »[1] .

هذا ويؤكد تاريخ الأمم — أكثر من مرة — ما يدحض فرية الماركسيين الذين يدعون فيها انبثاق مختلف النواحى الفكرية ، والأمور المعنوية من عقائد دينية ، ونظريات سياسية ، وفلسفية وأخلاقية .. من البناء الاقتصادى — على حد تعبيرهم .

ويكفى فى هذا المقام — أن أدحض فرية القوم الضالين ، بنشأة الإسلام . ذلك الدين الذى انتشرت دعوته من بيئة لم يكن لها أثر يذكر

(١) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب حـ ٩ ص ١٣٥٢

فى الأنشطة الاقتصادية ، ولم تكن تملك شيئاً من أدوات الانتاج المادية ، وعلى الرغم من ذلك انتشر الاسلام بتعاليمه التى تضمنتها دعوته ، فأبدعت فى شتى مناحى الحياة . « أبدعت فى عالم السياسة فكرة وحدة الدولة ، وفكرة مسئولية الحاكم أمام الأمة ، وفكرة مسئولية الدولة عن كل فرد فيها ، وأبدعت فى عالم الاجتماع فكرة التكافل فى المجتمع .. وأبدعت فى عالم العلم المذهب التجريبى الذى تقوم عليه حضارة الغرب فى هذا العصر الحديث »[1] .

وعلى الرغم من نشأة الاسلام فى بيئة لا تملك من أدوات الانتاج المادى شيئاً ، إلا أنه انتشرت — مع هذا — دعوته انتشاراً عم ربوع الأرض ومعظم بقاعها فى فترة وجيزة ، لا يقام لمثلها حساب فى عرف الزمن ، ولا يعتد بمثلها فى ميزان التاريخ .. لقد انتشر الاسلام دون أن يملك النبى — ﷺ — شيئاً من المغريات المادية ودون أن يستند إلى قوة أرضية . . يقول الامام ابن تيمية فى شأن أتباع النبى فى عصر صدر الاسلام « والذين اتبعوه ، لم يتبعوه لرغبة ولا لرهبة ، فإنه لم يكن عنده مال يعطيهم ولا جهات يوليهم إياها ، ولا كان له سيف ، بل كان المال والسيف والجاه مع أعدائه ، وقد أذوا أتباعه بأنواع الأذى ، وهم صابرون محتسبون ، لا يرتدون عن دينهم لما خالط قلوبهم من حلاوة الايمان والمعرفة »[2] .

وفى ضوء هذه الحقائق ، أود أن أسأل الماركسيين القائلين بالتأثير الكلى للمادة فى كل شىء ، قائلا لهم : —

فى دعوة الاسلام الذى لا يمكن فصله من التاريخ البشرى ، أين توجد

(١) دراسات فى النفس الإنسانية للأستاذ محمد قطب ص ٣٦٦

(٢) الجواب الصحيح لابن تيمية حـ ٤ ص ٨١

العوامل المادية والمؤثرات الاقتصادية التى دعت إلى ظهوره ، وحتمت انتشاره ، وجعلته دينا ممتدا عبر الزمان والمكان ؟

أما كان يكفى القوم أن يتدبروا مثل هذا التساؤل ، ليدركوا تهافت فكرهم المادى ، وليعلموا ما للعقيدة من تأثير شامل فى سير الأحداث ومجرى التاريخ ؟

إن أصحاب التفسير المادى للتاريخ — إذا لم يعترفوا بما للعقيدة الدينية من تأثير كلى ، فبأى شيء يستطيعون أن يعللوا انتصار المسلمين الأوائل على جحافل الشرك والإلحاد من الفرس والروم ، رغم الفارق المادى الضخم بين الطرفين .. عددا وعتادا

أليست العقيدة هى العامل الحاسم إذن ؟

وإذا لم يعترف الماركسيون بتأثير العقيدة الدينية فى شتى نواحى الحياة ، فبأى شيء يستطيعون أن يعللوا حدوث هذا المد الإسلامى الذى سرى بين نفوس البشر كهشيم تذروه رياح الهداية والإرشاد ، وكإعصار تدفعه موجات اليقين والإيمان ، على الرغم من نشوء الإسلام فى بيئة أرضها جدباء قاحلة ، ونظمها الصناعية معدمة ، وثقافتها العلمية ضئيلة ، وكثافتها السكانية بسيطة محدودة .

أقول : بم يعلل الماركسيون إزدياد أتباع الدعوة الإسلامية — فى سنوات تقل عن ربع قرن — إلى أكثر من مائة ألف [1] تابع يقفون حول النبى ﷺ فى حجة الوداع ؟؟ يقول د / حسن إبراهيم « وفى السنة العاشرة للهجرة خرج الرسول للحج فى أكثر من مائة ألف من المسلمين [2] » بل بم يعلل الماركسيون ازدياد أتباع الإسلام — خلال قرن واحد من

(١) هذا بخلاف من قعدت بهم الأعذار من الرجال والنساء عن المشاركة فى هذه الحجة المباركة .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى والدينى حـ ١ ص ١٤٩

ظهوره — إلى أكثر من مائة مليون دخلوا فى دين الله أفواجا .. من مختلف الأمم والشعوب ، مع أن هؤلاء الداخلين كانوا مخيرين بين الإسلام وبين شيء زهيد من الجزية لا يثقل على النفوس أداؤه [1] ؟

بم يعلل الماركسيون هذه الحقائق التاريخية المذكورة ؟ ... وأين ما أدعاه أصحاب التفسير المادى للتاريخ ... من إدعاء التأثير الكلى للمادة فيما ذكرت من حقائق ... نشأة الدعوة الاسلامية ونجاح مبادئها فى شتى مجالات الحياة ، وازدياد أتباعها على مر السنين والأعوام ، وامتداد تعاليمها فى آفاق الزمان وأبعاد المكان ، وبقاء كلمتها حتى عالم الخلود .

أين حتمية المادة — التى يفسر بها الماركسيون كل شيء — إزاء ما ذكرته من حقائق ؟ ... إنه لا تأثير للمادة على الاطلاق ، وإنما التأثير كله للعقيدة الدينية التى هى بحق ، تشكل العامل الحاسم فى مجرى الأحداث ، ومن ثم تكون العقيدة جديرة بأن يفسر بها التاريخ البشرى .

أما مازعمه الماركسيون من تأثير لأدوات الانتاج وعوامل الاقتصاد المادية ، فما هذه إلا مجرد أشياء لا تملك لنفسها شيئا ، فضلا عن أنها لا تستطيع أن تفرض على غيرها حتميات لا مفر منها ... إن آلات الانتاج إن هى إلا أشياء مسخرة للإنسان وليس الانسان مسخراً لها ، أى أن الانسان ليس ترسا فى آلة ، يتحرك بحركتها ويسكن بسكونها ، وإنما الآلة هى طوع الانسان ورهن إشارته ، لأنه هو الصانع لها ، وهى الخاضعة لتوجيهاته وتعديلاته .

أقول : إذا كان هذا هو شأن المادة وحقيقة أمرها من عجز وقصور وسلبية ذاتية ، فهل يكون هناك مجال إذن لقول من يريد تفسير التاريخ البشرى تفسيراً مادياً ؟ ويجدر بى هنا أن ألفت النظر إلى أن الدعوة الاسلامية حين تأبى أن يفسر التاريخ تفسيراً مادياً ، فلا يقصد بهذا أن

(١) راجع الرد على الدهريين للأفغانى ص ٨٠

الاسلام يحتقر المادة نفسها ، ولا يخاصمها لذاتها ، وإنما هو يحارب سيادتها وطغيانها ، لأن فى سيادة المادة سيادة للنفعية والأنانية وسائر ألوان الشرور والمفاسد ... يقول الأستاذ سيد قطب « إن المجتمع الاسلامى... لا يحتقر المادة ، لا فى صورة النظرية ، ولا فى صورة الانتاج المادى ، فالانتاج المادى من مقومات الخلافة عن الله فى الأرض ، ولكنه فقط لا يعتبرها — أى المادة — هى القيمة العليا التى تهدر فى سبيلها خصائص الانسان ومقوماته ، وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته ، وتهدر فيها قاعدة الأسرة ومقوماتها ، وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته إلى آخر ماتهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات ، لتحقق الوفرة فى الانتاج المادى » (١) .

وأود أن أختم حديثى الذى يكشف النقاب عن التضليل الماركسى ، فى تفسيره المادى للتاريخ ، بذكر نقطتين إثنتين ، تلقيان مزيدا من الضوء على هذا التضليل .

أما النقطة الأولى : فتتلخص فى أن التفسير المادى للتاريخ إلا يستند إلى حقائق ثابتة ، ولا يعتمد على أحداث واقعية ، وإنما يعتمد أول وآخر ما يعتمد ، على الأغراض الهوائية والأهداف الشخصية ... يتضح ذلك من تقرير أحد المشايعين للماركسيين ، حين يقول [أدوار دكار] « يتطور تفسير التاريخ للماضى ، مع الانبثاق التقدمى لغايات جديدة ، ولنذكر أبسط الأمثلة بأسرها ، فعندما بدا أن الغاية الرئيسية هى تنظيم الحريات الدستورية والحقوق السياسية ، قام المؤرخون بتفسير الماضى وفقا لهذه الغاية ، وعندما بدأت الغايات الاقتصادية والاجتماعية تحل محل الغايات الدستورية والسياسية ، تحول المؤرخون إلى التفسيرات الاقتصادية والاجتماعية للماضى » (٢) .

(١) معالم فى الطريق ص ١١٠ ، ١١١

(٢) ماهو التاريخ : تأليف ، أدوار دكار ، ترجمة : على أدهم ص ١٥٨

وعلى الرغم من اعتراف الماركسيين — على لسان الكاتب المذكور — بأن تفسير التاريخ مرتبط بما يهدف المؤرخون إليه من غايات ، وعلى الرغم من اعتراف الماركسيين بتفسيرات متنوعة للتاريخ — يجىء فى مقدمتها التفسير الاقتصادى فى زعمهم — ... إنه على الرغم من ذلك كله ، فإن القوم يستبعدون التفسير الدينى عامة والاسلامى خاصة ، بل يعتبرون التفسير العقدى للتاريخ البشرى مغالطة وانتكاساً بفن التاريخ وسقوطا به إلى الهاوية (١) !!

وأما النقطة الأخرى : فتتلخص فى أن التفسير المادى للتاريخ تفسير واه ضعيف ، إذ أنه لم يحط خبرا بتاريخ كل المجتمعات ، كما زعم مشايعوه ، كما أنه لم يحط علما بمختلف العوامل المؤثرة فى سير أحداث التاريخ البشرى ، وأن كل ما أستطاعه فى هذا المجال ، أن يقف بعد جهد ومشقة ، على فترة لا تذكر فى عمر الزمان ، وعلى أحداث مجتمع أوروبى يتضاءل حجمها التاريخى بين الأحداث الجسام ، وعلى زاوية جانبية ضيقة تظهر الصراع الدائم والنضال المستمر — حول النواحى المادية والعوامل الاقتصادية — هو العامل المؤثر فى حياة الأمم وتشكيل تاريخها ... يقول [فردريك انجلز] مؤكدا قصور التفسير المادى للتاريخ ... « بينما كان بحث العلل الدافعة فى التاريخ يكاد يكون مستحيلا فى الأيام السابقة نظراً للعلاقات المتداخلة المعقدة والمختفية والقائمة بين هذه العلل والنتائج المترتبة عليها ، فإن العصر الذى نعيش فيه قد بسط هذه العلاقات المتداخلة بحيث أمكن حل اللغز منذ قيام الصناعة الكبيرة — أى على الأقل منذ حلول السلام

(١) أنظر ما كتبه [أدوار دكار] حين يقول « إن إفتراض نهاية للتاريخ لها طابع دينى . . أكثر ملاءمة لعالم اللاهوت منه للمؤرخ ، وهو يرجع إلى المغالطة الخاصة بهدف خارج عن التاريخ » . . الكتاب السابق ص ١٤٨

فى أوربا سنة ١٨١٥ م — ولم يعد خافيا على أحد فى انجلترا ، أن النضال السياسى بأسره يدور حول دعوى طبقتى الارستقراطية الزراعية والطبقة الوسطى فى النفوذ والسيادة »(١) .

ونستأنس فى مجال التعقيب على مقالة [انجلز] المذكورة هنا بقول الأستاذ العقاد متسائلا « ما معنى هذا على أى وجه من الوجوه أردنا أن نعرف معناه ؟ . إن معناه البين أن أطوار التاريخ قبل القرن التاسع عشر لم تكن قاطعة فى الدلالة على سبب وحيد لايسمح باقتراض سبب آخر ، لاستحالة الفصل بين المقدمات والآثار ، ومعناه أن النظرية التى يريدون من أجلها أن يقلبوا الكون على من فيه قائمة على ملاحظات محصورة فى نحو ثلاثين سنة من تاريخ الإنسانية ، يجوز جدا أن تختلف بين تلك الفترة التى كانت بداءة انتقال لم تظهر عواقبها التى لايطيق الماديون انتظارها ، لأنهم فى عجلة لاتحتمل هذا الانتظار .

وليت ملاحظات ثلاثين سنة فى تاريخ الإنسانية قد كشفت عن شىء يؤيد مذهبهم بين الطبقات ، لأن الصراع بين الملاك النبلاء والطبقة الوسطى ، لم يكن صراعا على استغلال إحداهما للأخرى ، بل كان صراعا على دعوى السيادة كما قال [انجلز] و غايته فى رأيه ، هى استغلال طبقة ثالثة من العمال .. وحسب الباحث الأمين أن يعلم أن الملاحظات المستمدة من التاريخ مشكوك فيها قبل سنة ١٨١٥م وأن الملاحظات المستمدة بعدها مأخوذة من تاريخ ثلاثين سنة(٢) » .

أقول : لعل مثل هذه المآخذ التى ذكرت ، توضح درجة التضليل

(١) التفسير الاشتراكى للتاريخ مختارات من [فردريك انجلز] و [كارل ماركس] ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام ص ١٢١ ، ١٢٢

الماركسى ، وتبرر — فى الوقت نفسه — رفض أعداء الإسلام قبل أتباعه لمثل هذا الهراء المسمى بالتفسير المادى للتاريخ .. يقول باحث الاجتماع « توماس بوتومور » فى كتابه « قال [ماكس فيبر] منتقداً الماركسيين فى عصره : من المؤكد أنه لابد من رفض المفهوم المعروف بالمفهوم المادى للتاريخ كفلسفة للحياة ، أو كصفة للتفسير العلمى للواقع التاريخى(١) » .

وبعد :

فهذا تحليل شامل لبيان التضليل الماركسى ، فى فكرته الاجتماعية المسماة بالتفسير المادى للتاريخ ، ولعلى استطعت — من خلال هذا التحليل — أن أقضى على جزئيات التفسير المذكور وكلياته ، وعلى فروعه وأصوله — إن ساغ إطلاق الأصالة على دعاواه — من مصادر متنوعة متعددة ، من صميم المصادر الماركسية نفسها ، ثم من نتائج التجارب التطبيقية للباحثين الطبيعيين ثم من أقوال المفكرين المسلمين . . ثم مما فتح الله به من آفاق آياته التنزيلية فى القرآن الكريم .

ولعلى استطعت — فى هذا التحليل الشامل — أن أثبت بالأدلة القوية والبراهين الساطعة وهن ماتضمنه التفسير المادى من تصورات ، وضلال ما اشتمل عليه من مزاعم ودعاوى ، وتفنيد كل ما دعا إليه من ضلالات يسبغ عليها صفة الأسس والقواعد .

ثم لايفوتنى فى الختام أن أقول : إن النتيجة المترتبة على ما أثبته فى هذا المقام . . من تضليل التفسير المادى للتاريخ البشرى . . أمر يضيف أبعاداً أخرى إلى ماتفرد به التفسير الإسلامى للتاريخ من صدق وأصالة ،

(١) كتاب [بوتومور تمهيد فى علم الاجتماع] ص ٧٠

ولاغرو فى هذا ، لأن التفسير الإسلامى يحيط بالإنسان روحاً وجسداً وبعلاقاته . . دينا ودنيا . . ثم يقوم على تعليل أحداث التاريخ البشرى ووقائعه بشىء واحد . . هو عقيدة التوحيد المؤثرة فى كافة مراحل التاريخ ، بل فى ربط هذه المراحل برباط جعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزئيات ، من العصور الأولى للأمم حتى عصورها المتأخرة ، بل فى جميع مراحل عمرها . . سواء فى الحياة الأولى أم فى الآخرة !!

هذا وبالله التوفيق ؟

د / مصطفى أحمد أبو سمك
أستاذ مساعد بقسم الدعوة
والثقافة الإسلامية — كلية أصول الدين
القاهرة

قائمة المرجع

القرآن الكريم

١ — الإتقان فى علوم القرآن ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى — الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٤ م .

٢ — الإسلام فى مواجهة التحديات المعاصرة ، أبو الأعلى المودودى تعريب : خليل أحمد الحامدى — دار القلم الكويت ط ثانية سنة ١٩٧٤م

٣ — إبراهيم أبو الأنبياء — عباس محمود العقاد — طباعة دار الهلال بدون تاريخ .

٤ — الإسلام يتحدى : وحيد الدين خان — ترجمة : ظفر الإسلام خان . تقديم : د / عبد الصبور شاهين طباعة المختار الإسلامى — الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٣ م

٥ — الإنسان هذا المجهول . الكسيس كاريل — ترجمة : انطون العبيدى . مراجعة د / مصطفى زيور الناشر : دار الكتاب المصرى — بدون تاريخ .

٦ — أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة ، فردريك انجلز — ترجمة : أديب يوسف منشورات دار الفارابى ، ودار الكتاب العربى — بدار الكتب القاهرة .

٧ — بوتومور تمهيد فى علم الاجتماع ، توماس بوتومور — ترجمة وتعليق د / محمد الجوهرى وآخرين ، طبعة ثانية سنة ١٩٧٣م دار الكتب الجامعية بالإسكندرية .

٨ — بيان الحزب الشيوعى ، ماركس وانجلز — دار التقدم بموسكو سنة ١٩٦٨ م .

٩ — تفسير [فى ظلال القرآن] الأستاذ / سيد قطب ، طباعة دار الشروق بيروت سنة ١٣٩٣ هـ — ١٩٧٣ م

١٠ — تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى د/حسن إبراهيم حسن الطبعة السابعة سنة ١٩٦٤ م .

١١ — تهافت الفكر المادى والتاريخى بين النظر والتطبيق ، د/ محمد البهى — دار الفكر بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٧٠ م .

١٢ — التفسير الاشتراكى للتاريخ ، مختارات من [فردريك انجلز وكارل ماركس] عربها وصدرها دكتور / راشد البراوى ، الناشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٤٧ م .

١٣ — الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، شيخ الإسلام تقى الدين أحمد ابن تيمية ، مطبعة المدنى سنة ١٩٦٤ م .

١٤ — خلاصة الفلسفة والاجتماع ، إبراهيم شديد ، محمد على الشرقاوى طبعة ثالثة سنة ١٩٥٨ ، مكتبة نهضة مصر .

١٥ — الدين . بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، د/ محمد عبدالله دراز ، مطبعة السعادة سنة ١٩٦٩ م .

١٦ — دعوة الرسل إلى الله تعالى . الشيخ محمد أحمد العدوى ، طباعة مصطفى الحلبى سنة ١٩٣٥ م .

١٧ — دراسات فى النفس الإنسانية ، الأستاذ محمد قطب ، دار الشروق سنة ١٩٧٤ م .

١٨ — الدين فى مواجهة العلم ، وحيد الدين خان ، ترجمة ظفر الإسلام خان ، مراجعة : عبد الحليم عويس دار الاعتصام طبعة أولى سنة ١٩٧٢ م

١٩ — الرد على الدهريين ، جمال الدين الأفغانى ، تحقيق الشيخ محمود أبو دية الناشر دار الكرنك بدون تاريخ .

٢٠ — السلام العالمى والإسلام ، سيد قطب ، مكتبة وهبه سنة ١٣٧١ هـ سنة ١٩٥١ م .

٢١ — الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام ، عباس العقاد ، كتاب الهلال طبعة ثانية — بدون تاريخ .

٢٢ — صحيح مسلم بشرح النووى ، الحافظ محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووى ، المطبعة المصرية — بدون تاريخ .

٢٣ — على أطلال المذهب المادى ، محمد فريد وجدى ، مطبعة دار المعارف القرن العشرين سنة ١٩٢١ م

٢٤ — العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، سيد قطب ، طبعة ثامنة سنة ١٣٨٨ هـ — سنة ١٩٦٨ م .

٢٥ — عقائد بنى اسرائيل فى القرآن الكريم ، على الخطيب ، عدد ١٣١ ، كتب إسلامية سنة ١٣٩٢ هـ سنة ١٩٧٢ م

٢٦ — الفكر المادى الحديث وموقف الاسلام منه ، د/ محمود عثمان ، نشر الانجلو سنة ١٩٧٧ م

٢٧ — قصص الأنبياء لابن كثير ، الامام أبو الفداء اسماعيل بن كثير — تحقيق / محمد أحمد عبد العزيز الناشر دار الحديث ، دار مصر للطباعة سنة ١٩٨٢ م

٢٨ — اللينينية ومعركة الأفكار ، تأليف مودر جنيسكايا ، ترجمة: أسما حليم ، طبعة أولى ديسمبر سنة ١٩٧٥ م .

٢٩ — ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . السيد أبو الحسن على الحسينى الندوى . الناشر دار الكتاب العربى بيروت — طبعة سادسة ١٩٦٥ م

٣٠ — مفاهيم إسلامية حول الدين والدولة . أبو الأعلى المودودى دار القلم الكويت ١٩٧٤ م

٣١ — معالم فى الطريق . سيد قطب : ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م دار الشروق

٣٢ — — منهج الفن الإسلامى . محمد قطب . دار الشروق ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م

٣٣ — المادية التاريخية . دراسة فى نظرية المجتمع الماركسيه . تأليف كيلله و كوفالسون ترجمة إلياس شاهين . دار التقدم بموسكو . بدون تاريخ

٣٤ — الماركسية تأليف : فردريك انجلز . ترجمة وتعليق : ماهر نسيم مكتبة الثقافة الشعبية . دار المعارف بمصر .

٣٥ — ماهو التاريخ تأليف : ادوارد كار . راجعه : على أدهم ترجمة : أحمد حمدى محمود سلسلة وزارة التعليم العالى قسم الترجمة والألفى كتاب ١٩٦٢ م

٣٦ — المادية الديالكتيكية والتاريخية تأليف ستالين . تعريب خالد بكداش : دار القلم . بيروت طبعة ثالثة ١٩٥٣ م

٣٧ — النبأ العظيم : نظرات جديدة فى القرآن . د / محمد عبد الله دراز المطبعة العامرة المليجية ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧ م